مصر فى البرزخ

البرزخ - فى الدين - طريق الانتقال من الحياة للموت، ومصر الآن فى برزخ عكسى من الموت إلى الحياة، وفى الحالين تسهل ملاحظة مشاعر الضيق والاختناق والحيرة، والخوف من المجهول.

قد لا يكون الأمر مقصورا على مصر، بل الشعور نفسه موجود فى أقطار الثورات العربية المعاصرة، لكنه يظهر فى مصر أكثر وضوحا بدواعى حجمها السكانى الهائل، وثقل أوجاعها وأحزانها، وحرارة أشواق المصريين الطافحة إلى عالم جديد لا يبدو فى قبضة اليد.

وربما هى قصة الثورات العربية نفسها، وهى - أى الثورات - من طراز فريد حقا، خاصة فى صورتها السلمية الراقية كما جرى نسبيا فى مصر وتونس واليمن بالذات، فهذه الثورات لا تشبه ما كان قبلها من ثورات، وبدأت عفية هادرة صاخبة، وبلا قيادة مطابقة، وبغير إمكانية لتحقق فورى لأهدافها، واجتيازها لطرق غاية فى الصعوبة والوعورة، فقد بدت الفجوات منظورة، وبالذات بين الثورة العفية والمجتمع المنهك، وربما كان ذلك هو ما دفع كاتب السطور لتنبيه أطلقه قبل سنوات من الثورة، فقد قلت مبكرا إن مصر سوف تدفع ثمن مبارك مرتين، مرة فى وجوده، ومرة أخرى بعد خلعه، وتوقعت مزيجا من حكم العسكر وحكم الإخوان لمصر بعد ذهاب مبارك، وقلت: إن حكم الإخوان سيكون قرينا - لا بديلا - لحكم مبارك، وأن ما يبدو من تناقض بين جماعة الإخوان وجماعة مبارك مجرد خداع صور، وأن التناقض فيزيائى لا سياسى، فالطرفان فى ذات المركبة وعلى ذات وجهة السير، وهو ما أظهرته حوادث متدافعة تجرى الآن، فالتطابق تام فى اختيارات السياسة والاقتصاد، وهو ما يفاقم من تعقيدات المأساة

المصرية، ويتدهور بالحال العام أكثر، ويمد الثورة المصرية بوقود يجدد نارها، ويزيد من دواعى الإحباط، واحذروا شعبا يصيبه الإحباط.

غير أن برزخ الضيق والإحباط لا يبدو بلا نهاية، فالثورة المصرية المعاصرة توالى سيرتها الفريدة، سيرة «إيزيس» فى الأسطورة المصرية الرمزية القديمة، سيرة «إيزيس» التى تلم أشلاء زوجها وحبيبها «أوزوريس»، وتضمها جسدا واحدا متحدا، وتحمل منه فتلد «حورس» رمز مصر الجديدة، والمعنى الرمزى للأسطورة يبدو ظاهرا فى أحوال مصر الآن، فالبلد يمر بلحظة اختناق واضطراب مؤلمة حقا، لكنها - فى الوقت ذاته - واحدة من أعظم لحظات التغير السريع فى الوعى، فقد دخلت لحظة الثورة العفية على مجتمع غاية فى الإنهاك، يعيش ما يزيد على ثلثى سكانه تحت خطوط الفقر والبطالة والعنوسة والمرض بالمعنى الحرفى، وبدت المفارقة ظاهرة بين حيوية الثورة وركود المجتمع الذى تدهورت حالته، وقضى أربعة عقود قبل الثورة فى حالة انحطاط تاريخى، تحول فيها المجتمع المنهك إلى غبار بشرى، خرج من سباق التاريخ، وسادته مشاعر بؤس ويأس، وخاطبت تيارات اليمين الدينى بؤسه كجمعية خيرية، ثم إنها خاطبت يأسه كجمعية دينية، وبدا تغول اليمين الدينى كأنه القدر الزاحف، وعلى نحو ما أظهرته البروفات الانتخابية الأولى بعد الثورة، والتى عكست استسلام المجتمع المنهك لدواعى الخداع، لكن عدوى الثورة العفية دفعت بدماء جديدة إلى شرايين المجتمع المنهك، وراح المصريون - فى كتلتهم الغالبة - يفيقون من الغفلة ونومة أهل الكهف، وتستعيد ملايينهم وعيها بسرعة، وعلى طريقة «كبش النار» لا الوعى المسبق، وكشف خداع الصور المراوغة، وهو ما يفسر الاختلاف الجوهرى فى النتائج المعلنة للاستفتاء الأخير، فقد لا يكون الدستور المستفتى عليه مهما، وهو قابل للتغيير فى أقرب فرصة بإذن الله، لكن اللافت حقا فى القصة كان شيئا آخر، وهو حجم المعارضة لنص مجرد لم يطلع عليه الأغلب الساحق من الناخبين، فقد قاطع سبعون بالمائة من الناخبين عملية الاستفتاء

كلها، ونزلت نسبة المشاركة إلى ما يقارب النسب المعتادة فى أواخر سنوات مبارك، وهو ما يعكس حالة الإحباط والضيق من حكم الإخوان بدستوره وسياسته، وفى الهامش الضيق للمشاركة، بدت المعارضة لافتة جدا، فقد أدارت ظهرها لنص الدستور المطروح، وصوتت بالرفض الجذرى لوجود الرئيس الإخوانى، وقد جرى - بالطبع - تحريف واسع للنتائج، وبها زاد صوريا من نسبة التصويت بالقبول، وهى لا تزيد فعليا - لا صوريا - على نسبة النصف بين الناخبين المشاركين، ونصف النصف الموافق كانوا من عوام الناس الطيبين، والذين وقعوا فى ظن أن إقرار الدستور يعنى الانتقال للاستقرار، وواصلوا سيرة التصويت المصرى التقليدى الموافق على أى نص يطرح للاستفتاء، وسواء قرؤوا أم لم يقرؤوا، بينما نصف النصف من المشاركين كانوا فى خانة أخرى، وكانوا ممن وقعوا تحت التأثير المباشر لدعاية جماعات اليمين الدينى، وهو ما يعكس تراجعا دراميا لتأثير اليمين الدينى، وانكشافا لفساد بضاعته، وانفضاحا لتمسحه التجارى بالشريعة والإسلام، فلا أحد فى مصر ضد الشريعة ولا ضد الإسلام، وسياسات اليمين الدينى معادية فى الجوهر لتعاليم الإسلام، وهو ما يفسر لا مبالاة المصريين المتزايدة بالدعاية الكاذبة، وتدافع حوادث الرفض الشعبى لاستخدام منابر المساجد لدعايتهم الحزبية، ولعل تأمل جغرافيا الرفض يزيد من وضوح الصورة، ففى القاهرة - العاصمة - كانت كفة الرفض كاسحة بامتياز، وهو ما سرى فى المدن الكبرى والصغرى، وفى تناسب طبيعى مع مستويات الوعى الأكثر تقدما، بينما تزيد نسب الموافقة فى الريف والجنوب ومحافظات الأطراف القبلية النائية، والتى ظلت بعيدة عن معنى الثورة، وغارقة فى أوحال البؤس والتخلف الاجتماعى والفقر «الدكر»، فضلا عن عار الأمية التى يصل معدلها فى مصر إلى أربعين بالمائة من السكان، وليس هذا ذنبهم بالطبع، وهذه معضلة يصح أن تلتفت إليها تيارات الثورة العفية، وأن تبتكر أساليب جديدة لرفع وعى المحرومين، وشرح برامجها المنحازة لحقوقهم الضائعة.

وباختصار، تبدو مصر كأنها تتقدم فى البرزخ، وتفيق من غيبوبة طويلة، وتستعيد وعيها بسرعة لافتة، وتصمم على الانتصار لمعنى الثورة «الموءودة» فى قبور اليمين الدينى.

"صوت الأمة " فى ٢٤ من ديسمبر ٢٠١٢

obeikan.com